الفصل العاشر

كنيدى والآفاق الجديدة

"فلتعرف كل أمة، سواء تتمنى لنا الخير أو الشر، أننا سندفع أي ثمن، ونتحمل أى عبء، ونواجه أي مشكلة ونساند أي صديق، ونقاوم أي أعداء، من أجل ضمان بقاء ونجاح الحرية.... إننا نتعهد بكل ذلك وأكثر"

(جون كنيدي)

(خطاب التولية)

كانت لدى جون كنيدى رؤية خاصة، وهى أن الولايات المتحدة كانت آخر وأفضل أمل متاح للبشرية. كان يود أن تنعم كل شعوب العالم بالرخاء والسعادة؛ واعتقد أن الولايات المتحدة قادرة على توفير الزعامة اللازمة لتحقيق تلك الأهداف. فأحاط نفسه بأفضل المفكرين الموجودين فى الولايات المتحدة على الإطلاق، وقام بتعيين الرجال الذين يؤهلهم ذكاؤهم وبراعتهم الفنية من تمكين الإدارة الأمريكية من حل أى مشكلة، بل حتى البحث عن مشاكل جديدة، لكى يتولوا حلها.

تولى كنيدى منصبه فى لحظة من الزمان، كان التفاؤل الأمريكى قد وصل فيها إلى ذروته، وكان كنيدى مؤمناً ـ وطالما ردد ـ أن الولايات المتحدة ستتمكن من اتخاذ زمام المبادرة فى الحرب الباردة، والإسراع فى سباق التسلح، والتخلص من الفقر والعنصرية داخلياً، وتخفيض الضرائب؛ كل ذلك فى آن واحد، ودون الإخلال

بتوازن الميزانية، أو البدء فى التضخم المالى. وباختصار كانت أهدافه بلا حدود مثل تعهده «بدفع أى ثمن»، واتفق معه فى ذلك معظم الأمريكيين. هذا وقد دعا «نيكسون» فى حملة انتخابات ١٩٦٠، إلى برنامج مماثل لذلك البرنامج.

كان «كنيدى» والرجال الذين حوله قد أظهروا نفاذ صبرهم من زعامة «إيزنهاور»، حيث وجدوا أنه لم يكن على قدر كاف من الجرأة والعدوانية، إذ كان ميالاً إلى الحلول الوسط، ولم يستطع أن يدفع أمته إلى تحقيق إنجازات عظيمة. وبصفة أساسية لقد رفض «إيزنهاور» فكرة أنه من الممكن أن يكون هناك حل عسكرى لمشاكل الحرب الباردة، أو أنه يمكن للولايات المتحدة أن تشكل مصير العالم. لقد تقبل وجود حدود للدور الأمريكى. ولكن كنيدى لم يتقبل ذلك، وحيثما كان إيزنهاور سلبياً، سيكون كنيدى إيجابياً، وحيثما كان إيزنهاور حذراً، سيكون كنيدى جريئاً. وكان كنيدى ومساعدوه مهتمين ـ بصفة خاصة ـ بإعادة هيبة الرئاسة وأولوية مكانتها، التى شعروا أنها تداعت خلال سنوات إدارة إيزنهاور.

كان كنيدى مهتما بكل منطقة فى العالم، وكان متلهفاً على أن يستفيد جميع الناس من تحلبل التكاليف والتخطيط الرشيد. كان سريع الحركة ووسيماً وشاباً، كان يشع بالثقة، كما كان سلسا فى تعامله مع المفكرين الذين تدفقوا إلى واشنطن لمساعدة الإدارة الجديدة. لقد كان على مستوى رفيع من الثقافة والفكر، فاق ـ بلا منازع ـ كل الرؤساء الأمريكيين منذ بداية الحرب الباردة. وبدا أن فطنة كنيدى، وسحره جعلاه متقدماً على سلفه بعدة سنوات مشرقة.

لقد اتسمت خطب الجمهوريين بالعداء المكشوف للاتحاد السوفيتى، وبالتشدد على محاربة الشيوعية بصفة دائمة، فكانت معبأة بشعارات الحرب الباردة، إلا أن تصرفات الجمهوريين كانت مكبلة وحذرة. أما خطب الحزب الديمقراطى ـ فى سنوات كنيدى ـ فقد فضلت التعايش السلمى، إذ إن كنيدى كان قد نبذ شعارات الحرب الباردة؛ خاصة بالنسبة للعالم الثالث؛ حيث قال إنه على استعداد أن يقبل الحياد وحتى الاشتراكية. لقد كان متعاطفاً مع الشعوب غير البيضاء، وكان مؤمنا أنه

متحرر من وصمة العنصرية، وأظهر اهتماماً بأفريقيا السوداء، وفى ذلك كان كنيدى فريداً من نوعه بالنسبة للسياسيين الأمريكيين، وبصفة عامة كان كنيدى يتحدث عن إقامة علاقة جديدة تماماً بين الولايات المتحدة والعالم الثالث. ولكن تصرفات الديمقراطيين اتسمت بروح النضال النشيط الفعال، التى تنال أعجاب أنصار الحرب الباردة التقليديين ـ أمثال «أتشيسون» و «ترومان» ـ وهذا ما حدث فعلا.

كان إيمان الرئيس الجديد راسخاً بأن ما حققته الولايات المتحدة فى الحرب الباردة، لم يكن كافيا، فقد قال إنه لم يكن «راضياً ـ كمواطن أمريكى ـ عن التقدم الذى نحققه». وكان كنيدى يود أن تبدأ شعوب أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا «فى التطلع إلى الولايات المتحدة، وإلى ما يفعله رئيس الولايات المتحدة، وليس إلى خروشوف، أو الشيوعيين الصينيين». كانت الحرية تعانى من «أخطر هجوم سبق أن تعرضت له من قبل»، وكانت الولايات المتحدة هى الوحيدة التى تستطيع إنقاذ الحرية، فإذا فشلت الولايات المتحدة، «فسوف تتداعى الحرية». ولذلك كانت الفكرة التى يكررها كنيدى هى: «إننى اعتقد أنه قدحان الوقت لكى تتحرك أمريكا مرة أخرى».

وإذا كان هناك من إعتقد أن كنيدى كان يلجأ فقط إلى الخطب الرنانة ـ على غرار خطب الحملات الانتخابية، فإن كنيدى سرعان ما بدد هذه الفكرة، ففى أول خطاب ألقاه كنيدى عن حالة «الاتحاد ـ The State of the Union» فى ٣٠ يناير ١٩٦١، قال محذراً «فى كل يوم تتضاعف الأزمات... وفى كل يوم نقترب أكثر من ساعة الخطر القصوى». لقد شعر أن عليه أن يبلغ الكونجرس بالحقيقة فقال: «إن تيار الأحداث قد أخذ ينحسر، ولم يكن الوقت فى جانبنا». وفى النهاية جاءت النبوءة الكئيبة فقال: «سيكون هناك مزيد من النكسات، قبل أن يرتد التيار».

لقد أراد كنيدى أن تبدأ الولايات المتحدة بالمبادرة؛ وهو ما بدا مريباً، مثل كلام «دالاس» عن التحرير، ولكن كنيدى أكد على أن «الحل الشامل يعتبر مستحيلاً فى العصر النووى» ولم يكن يتوقع أن يفوز بالمعنى التقليدى لتلك الكلمة؛ لأن حقائق

الوضع العسكرى كانت تعوق النصر، بينما كانت الرؤية الأمريكية لطبيعة التغيير والشيوعية تعوق السلام. وكان من شأن ذلك أن تلتصق الولايات المتحدة أكثر بسياسة الاحتواء، ولأن كنيدى لم يكن راضياً عن هذا الجمود ـ مثله فى ذلك مثل «دالاس» ـ فقد وجد أن عليه أن يعرض على الأمريكيين أملا بعيد المدى، فقال: «بدون حرب نووية.. نود أن نسمح لما أطلق عليه «توماس چيفرسون»، (مرض الحرية) أن ينتشر فى المناطق التى يسيطر عليها الشيوعيون الآن». وإن عاجلاً أو آجلاً سوف تنتصر الحرية ولكن كيف؟ سيتم ذلك جزئياً عن طريق الانتظار، وجزئياً من خلال جعل الحيوية الأمريكية مثالا يحتذى به. لقد أبلغ كنيدى الشعب الأمريكى أن عليه أن يتوقع عملية طويلة وبطيئة من التطور «بعيداً عن الشيوعية، وفى اتجاه الاستقلال القومى والحرية».

كانت البداية الأساسية لتلك المرحلة، فى العالم الثالث. وفى هذا الصدد أوضح كنيدى «إن أرض معركة الدفاع عن الحرية ونشرها، اليوم، هى النصف الجنوبى كله من الكرة الأرضية... أراضى الشعوب الصاعدة». كان كنيدى ـ مثل الشيوعيين ـ مؤمناً أنه لا مفر من انتصار نظامه فى المدى البعيد، كما لم يكن ـ مثله فى ذلك مثل الشيوعيين ـ نافراً من تعجيل العملية. وكم كان ملائماً أن أول فرصة عظيمة أتيحت له، وأول أزمة واجهته، كانت ثورة إحدى دول العالم الثالث. رغم كل الأحاديث التى ألقى بها الرئيس عن استعداده لتحمل أوجه الاختلاف فى العالم، فإنه لم يكن مستعداً لتقبل وجود نظام شيوعى على مقربة من فلوريدا. فى آخر ١٩٦٠، كانت وكالة المخابرات المركزية ـ بموافقة إيزنهاور ـ قد بدأت فى تدريب الكوبيين، المعادين لكاسترو فى المنفى، على فنون حرب العصابات. واقتضت الخطة الموضوعة إنزال أعضاء الثورة المضادة فى منطقة نائية فى كوبا لكى يتمكنوا ـ بمساعدة مستترة من الولايات المتحدة ـ من إقامة قاعدة عمليات للإطاحة بكاسترو.

فى منتصف إبريل ١٩٦١ بدأ الغزو على يد الكوبيين المنفيين، الذين حملتهم سفن أمريكية مؤمنة بطائرات أمريكية، حتى أنزلتهم على مقربة من «خليج الخنازير»،

فخاضوا فى الماء حتى وصلوا إلى الشاطئ. إلا أن كاسترو سحقهم تماماً، وأثبت أنه أقوى كثيراً مما تخيله الأمريكيون، ولم يظهر الشعب الكوبى أى ميل إلى الثورة عليه، وعجز المنفيون عن الحصول على أى تأييد فى جبال كوبا. فلعب كنيدى دوراً دقيقاً؛ محاولاً أن يقدم المساندة الكافية لنجاح الغزو، ولكن ليس بالقدر الذى يجعل تورط الولايات المتحدة واضحاً. وفشل فى تحقيق الهدفين.

عندما أخذ كنيدى يحلل سبب الفشل فيما بعد تذمر قائلاً «طوال حياتى.. كنت أعرف أنه من الأفضل عدم الاعتماد على الخبراء. كيف كان من الممكن أن أكون من الغباء بحيث أسمح لهم بالبدء فى العملية؟» وأصبح التبرير المتيسر دائما هو أن وكالة المخابرات المركزية وهيئة الأركان مسئولتان عن الخطأ. إن الرئيس ـ لكونه صغير السن وغير محنك ـ قد اعتمد على حكمهم كخبراء، ولكنهم خذلوه، ولذا، سوف يتجنب ذلك مستقبلاً.

كان ذلك التبرير هراءً واضحاً وجلياً. إن عملية «خليج الخنازير» لم تنفذ بالرغم من رغبات الرئيس، أو بالتعارض مع سياسته. ففى خلال حملته الانتخابية عام ١٩٦٠، كان قد دافع عن تولى القوات المنفية مثل هذا النشاط، وحقيقة الأمر أنها كانت متفقة تماماً مع أسلوبه العام. لقد أخطأت وكالة المخابرات المركزية عندما تنبأت بالتمرد على كاسترو، ولكن ذلك التنبؤ كان ـ بالضبط ـ ما أراد كنيدى سماعه؛ لأنه أيضاً كان مؤمناً أن كاسترو قد خان الثورة الكوبية، ولأنه كان مؤمناً أن الشعب الكوبى كان يئن تحت أقدام الظلم والاضطهاد. وكان الرئيس واثقاً فى وجود بديل بين الأحرار ـ فيما بين «كاسترو» و «باتيستا» ـ وأن جماعة الثورة المضادة المنفية ستقدم زعامة من الأحرار، يلتف حولها شعب كوبا. ولم يكن الخبراء هم الذين دفعوا بكنيدى إلى «خليج الخنازير»، وإنما دفعه لهذا نظرته للعالم*.

كان كنيدى قد تشاور مع السناتور «فولبرايت»، قبل أن يعطى الإشارة الأخيرة

* فيما بعد، أصدر كنيدى أوامره باغتيال كاسترو، فقد كان ثائراً لأنه أحرجه بشكل واضح، وحاولت «وكالة المخابرات المركزية» ذلك، ولكنها فشلت فى تنفيذ الأوامر.

لبدء العملية. وفى ٢٩ مارس، أرسل السناتور مذكرة إلى الرئيس، جاء فيها: «إن مساندة ذلك النشاط ـ حتى سراً ـ يعتبر تحركاً متسماً بالرياء والنفاق والسخرية التى عمدت الولايات المتحدة إلى شجب الاتحاد السوفيتى لممارستها» وقال السناتور: إن عملية «خليج الخنازير» سوف تعرّض المركز الأخلاقى للولايات المتحدة فى العالم للشبهة، وستؤدى إلى استحالة احتجاج كنيدى على الشيوعيين بدعوى انتهاك المعاهدات. ولكن كنيدى تجاهل «فولبرايت» ؛ لأنه شعر ـ من ناحية ـ أن النجاح سيتكفل بتقديم المبررات، ومن ناحية أخرى ـ وأهم ـ لأن التراجع فى الغزو سيعرض مركز الولايات المتحدة للخطر. لقد برر كنيدى موقفه فيما بعد قائلاً إن: «عدم موافقته على الخطة كان سيفسر على أنه علامة على الضعف، لا تتوافق مع موقفه العام».

كانت إحدى أعظم مخاوف كنيدى أن يبدو ضعيفاً. وكان رأيه ـ مثل رأى معظم أنصار الحرب الباردة ـ أن الطريقة الوحيدة للتعامل مع السوفييت وأعوانهم، كانت من مركز قوة. وأصبح السؤال المهم هو: ما مقدار القوة المطلوبة؟. لقد اختار كنيدى للإجابة على ذلك السؤال «روبرت ماكنمارا» وزير الدفاع الذى رأى أن «القدر المطلوب» هو التفوق الرهيب، وانطلق لكى يحقق للولايات المتحدة ذلك التفوق. إن «ماكنمارا» بعبقريته وقدرته على استخدام الأدوات التكنولوجية الحديثة ـ لحل المشاكل القديمة ـ كان صورة مصغرة لإدارة كنيدى. لقد شرح النتيجة مفصلاً فى حديث أدلى به إلى رؤساء تحرير وكالة «يونيتدبرس إنترناشونال» عام ١٩٦٧، إذ ذكر أنه حين تولى منصبه كان السوفييت يمتلكون «ترسانه صغيرة جداً، لتصنيع الصواريخ العابرة للقارات»، ولكن كانت لديهم القدرة على توسيعها لتصبح على مستوى ضخم جدا. إن الولايات المتحدة لم يتوفر لها «أى دليل على أن السوفييت كانوا يخططون ـ بالفعل ـ لاستخدام تلك الكفاءة على النحو الأكمل»، ولكن احتمال عزمهم على إجراء ذلك التوسع كان موجوداً. ولذلك، قرر «ماكنمارا» وكنيدى أنه «كان علينا أن نؤمن أنفسنا ضد» حشد قوة السوفييت، عن طريق زيادة قوة أمريكا بشكل مفيد وفعال. وبعد مضى عامين على تولى كنيدى

منصبه، كان قد رفع ميزانية الدفاع من ٤٠ بليون دولار إلى ٥٦ بليون دولار، ومع قدوم حرب ڤيتنام ارتفع ذلك الرقم بسرعة هائلة. وبحلول عام ١٩٦٧ كانت الولايات المتحدة تمتلك واحداً وأربعين غواصة نووية (بولاريس) تحمل ٦٥٦ قاذفة للصواريخ، و ٦٠٠ قاذفة للقنابل بعيدة المدى، مع وضع ٤٠٪ منها فى حالة استعداد قصوى دائماً. وبالنسبة للقذائف العابرة للقارات (ICBM). توصل كنيدى و«ماك نمارا» إلى زيادة مستوى القوة الأمريكية إلى خمسة أضعافها (كانا قد ورثا عن إيزنهاور مائتى قاذفة عابرة للقارات (ICBM)، وبحلول ١٩٦٧ كانت الولايات المتحدة تملك ألف واحدة من تلك القذائف.)

لقد انطلق فريق «كنيدى ـ ماك نمارا» فى أضخم سباق تسلح فى تاريخ البشرية على الإطلاق، امتدت أبعاده إلى ما بعد الأسلحة النووية بمراحل. كما تعاون البيت الأبيض والبنتاجون لتحقيق زيادة هائلة فى القدرات الأمريكية فى مجال الحرب التقليدية، وزيادة قوات حرب العصابات التى كانت مفضلة لدى كنيدى. فى ١٩٥٤، تراجع إيزنهاور عن التورط فى «ديان بيان فو»، لأنه لم تكن لديه القوات المطلوبة، فى ظل عدم رغبته فى بدء حرب نووية. أما كنيدى فقد سعى إلى أن تكون لديه القدرة على التدخل فى أى مكان، وقدحصل على ما أراده، فى إطار الاستراتيجية الجديدة التى أطلق عليها استراتيجية «رد الفعل المرن.»

كان رد فعل روسيا على حشد القوة الأمريكية على هذا النحو الهائل، أنها قامت بزيادة قوة القذائف العابرة للقارات (ICBM). ووفقاً لما ذكره «ماك نمارا» فى ١٩٦٧، لم يكونوا قد اعتزموا البدء فى سباق التسلح، وربما كانوا قد اقتنعوا بقبول الوضع الراهن فى ١٩٦٠ والذى تمتعت الولايات المتحدة فى ظله بالتفوق، ولكن ليس بالقدر الذى يمكنها من توجيه الضربة الأولى. ومع ذلك، فمن الواضح أن برنامج «كنيدى ـ ماك نمارا» أقنع الكرملين بأن الولايات المتحدة كانت فعلا تهدف إلى تحقيق القدرة على القيام بالضربة الأولى، فلم يعد هناك مفر أمام السوفييت إلا زيادة القاذفات التى تمتلكها، مما دفع الولايات المتحدة إلى البدء فى دورة جديدة

للتوسع. ولكن ـ وفقا لاعتراف «ماك نمارا» ـ كان الموضوع كله خطأ. لقد كانت الولايات المتحدة غير مستعدة للمجازفة بالسماح للسوفييت بتحقيق التكافؤ فى نظم إطلاق الأسلحة النووية. ولكن زيادة عدد القاذفات الأمريكية ترتب عليه زيادة الخطر الذى واجهته الولايات المتحدة، ففى ظل رد فعل السوفييت ـ الذى كان لا مفر منه ـ كلما أقامت الولايات المتحدة عدداً أكبر من القاذفات، أصبحت أقل أمناً.

لقد أدرك «ماك نمارا» ـ نفسه ـ ذلك الخطر، عندما اعترف بأن: «الحقيقة العارية هى أنه إذا كانت قد توافرت لدينا معلومات أكثر دقة عن القوات الاستراتيجية السوفيتية المستهدفة (فى ١٩٦١)، لما كنا احتجنا إلى بناء ترسانة أسلحة نووية ضخمة، مثل تلك التى نمتلكها اليوم». لم يهدف «كنيدى» و«ماك نمارا» ـ غالبا ـ إلى تحقيق القدرة على البدء بالهجوم، وحتى إذا كان قد خططا لذلك، فسرعان ما أدركا أن ذلك الهدف كان مستحيلاً. ولذلك كما استنتج «ماك نمارا» فقد أصبح التفوق الأمريكى فى القذائف العابرة للقارات، فى ١٩٦٧، «أعظم مما خططنا له فى بداية الأمر، وأكثر مما نتطلبه فى واقع الأمر».

إن أهمية رد الفعل السياسى لخطة كنيدى، كانت فى نفس أهمية رد الفعل العسكرى. فبينما اكتفى الجمهوريون بأن ترتكز السياسة العسكرية على أساس أن الجنرال «إيزنهاور» كان أدرى بما يفعله، وبأن يدلوا ببيانات عامة مبهمة وجود «فجوة قاذفات»، نجد أن الديمقراطيين كانوا يدلون ببيانات محددة، وشديدة اللهجة عن التفوق الأمريكى. إن السياسة العسكرية الأمريكية الجديدة والتحرك الأمريكى فى «خليج بيجز» أوضح للسوفييت أنهم مضطرون للتعامل مع إدارة أمريكية ذات نزعة عدوانية توسعية فى العالم الخارجى. لقد وجد المتشددون فى «الكرملين» أن أكثر تنبؤاتهم المنذرة بكارثة قد تحققت، واتهموا «خروشوف» بأنه أهمل الأمن السوفيتى العسكرى. حتى «خروشوف» وأتباعه ـ الذين كانوا ملتزمين باحتمال انفراج العلاقات الدولية المتوترة ـ اضطروا إلى تغيير وجهة نظرهم، حيث ظهر لهم أن الولايات المتحدة كانت تحاول تغيير الميزان العسكرى لصالحها، قبل التوصل إلى

تسوية عالمية كانت ستتضمن اتفاقية للمحافظة على مستوى القوات العسكرية على ما كان عليه آنذاك. وكان كنيدى دائم الحديث عن مباحثات الحد من التسلح، وفى نهاية السنة الأولى من توليه الرئاسة قال إن أكبر إحباط واجهه كان الفشل فى تأمين معاهدة لوقف التجارب النووية. وكانت روسيا ترى أن الرغبة فى الحد من التسليح التى أفصح عنها كنيدى، لم تكن أكثر من كذبة دعائية متعمدة، حيث إنها اقترنت بحشد القوة العسكرية الأمريكية؛ وكانت واثقة أنها مجرد قناع لاستمرار الوضع الراهن فى كافة أنحاء العالم، خاصة فى برلين وڤيتنام وكوريا وفورموزا. لقد هاجمت روسيا «كنيدى» بدعوى أنه سيستخدم الأسلحة الأمريكية المتفوقة ليعوق كل التغيرات المتوقعة.

لقد أقر كنيدى نفسه الفكرة، تقريباً، عندما اجتمع مع خروشوف فى ڤيينا، فى صيف ١٩٦١. ولقد عمد الرئيس إلى حث خروشوف عدة مرات على المحافظة على توازن القوى السائد فى التسليح والمجال الجغرافى. لقد أصر كنيدى على أن دخول دول إضافية فى المعسكر الشيوعى، أو فقدان فورموزا أو برلين، سيغير التوازن؛ مما سيجبر الولايات المتحدة على رد الفعل. ولكن خروشوف رفض ذلك المفهوم، قائلاً إنه حتى إذا كانت هذه رغبته فإنه لم يكن باستطاعته أن يوقف التغيير، وأنه لا يمكن ـ على أية حال ـ توقع تعاون الاتحاد السوڤيتى على فرض الاستقرار بالقوة، على عالم سيطر عليه الاستعمار والرأسمالية. لقد تذمر خروشوف من أن كنيدى «تجاهل» المشكلة الحقيقية، وعقب قائلاً: «نحن فى الاتحاد السوڤيتى.. نشعر أن العملية الثورية يجب أن يكون لها الحق فى الوجود»، وأن «الحق فى التمرد، وحق الاتحاد السوڤيتى فى المساعدة على قمع الحكومات الرجعية... يعد أهم القضايا على الإطلاق» ثم قال: «إن هذه القضية هى جوهر علاقتنا» مع الولايات المتحدة، وأعرب عن أسفه؛ لأن «كنيدى عجز عن فهم ذلك».

وحيث إن خروشوف أراد أن يكتشف تفاصيل ذلك الموضوع، فقد أثار موضوع قضية، فقال كنيدى إن انسحاب القوات الأمريكية من فورموزا، سيكون له تأثيراً سلبيا

على الوضع الاستراتيجي الأمريكي في آسيا؛ ولذا سوف تتم مقاومته. وهز خروشوف رأسه، إذ كان ذلك يعني أن الصينيين الشيوعيين سيضطرون إلى القتال من أجل فورموزا، وهو ما كان «موقفا محزناً»، أجبره على التشكك في صدق الرغبة الأمريكية في التعايش السلمي، ثم أضاف إنه لو كان في مكان الصينيين لبدأ بالفعل في القتال من أجل فورموزا؛ فحثه كنيدي على أن يكبح جماح بكين لأن الولايات المتحدة لن تتورع عن القتال.

كما أن حشد القوات العسكرية الأمريكية أشار إلى أن الولايات المتحدة ستقاوم ـ بالقوة إذا استدعت الضرورة ـ الحركات الثورية في العالم الثالث، كما أشارت إلى أن الولايات المتحدة كانت على استعداد لاستخدام القوة للمحافظة على الوضع الراهن في أوروبا. ولكن، كما كان خروشوف عاجزاً عن مصادرة حق الاتحاد السوفيتي في مساعدة الثورات، كان عاجزاً أيضاً عن قبول الوضع في برلين، على أنه وضع دائم؛ «واستمرت الشركة عالقة بحلقة». وبحلول صيف ١٩٦١، كان عليه أن يسرع بالتحرك، إذا كانت لديه الرغبة في اتخاذ أي إجراء قبل أن ينجح برنامج «كنيدي وماك نمارا» في تحقيق التفوق الأمريكي الهائل في الأسلحة الاستراتيجية.

كان يبدو على كنيدي أنه مستعد ـ من جانبه ـ لتسوية معقولة، فقد نفذ صبره مع زعماء العالم الثالث الذين استمروا في الصراع حول قضايا غير منطقية، من وجهة نظره. لقد حث الهند وباكستان على أن تجتمعا معاً للاشتراك في حل مشاكل آسيا؛ وكان يرى أن العرب والإسرائيليين يجب أن يصلوا إلى تسوية أوجه الاختلاف بينهم، متناسياً الأبعاد المتعلقة بالمكانة، وغيرها من العوامل غير المنطقية. كان يريد من الجميع أن يكونوا متفتحين، وعلى استعداد لعرض وقبول الحلول البديلة، ولدفع قضية السلام والرخاء إلى الأمام. ومع ذلك فإنه بالنسبة لبرلين، أثبت أنه يمكن أن يكون عنيداً وملتزما بالمواقف السابقة وعازفاً عن التفكير في حلول وسط ـ مثله مثل أكثر القوميين العرب أو الآسيويين تطرفاً ـ فعندما أثار خروشوف أزمة أخرى في برلين، طلب كنيدي مشورة «دين أتشيسون» ـ من باب التأكيد على

وجهة نظره ـ فأوصى أتشيسون، كعادته دائماً بالتأكد من جفاف البارود، واتخاذ موقف حاسم؛ لقد كان أساس موقفه هو: لا نتفاوض.

ووافق كنيدى على ذلك طوال صيف ١٩٦١، وأصر خروشوف على ضرورة التوصل إلى تسوية بخصوص برلين قبل انتهاء العام، وكان رد كنيدى فاتراً وحاسماً: لا يمكن تغيير أى شئ. لقد أصر كنيدى على أنه «إذا لم نتكفل بالتزاماتنا فى برلين، سيؤدى ذلك إلى انهيار «الناتو»، وإلى وضع خطير على العالم أجمع، إن مصير أوروبا كلها رهن بما يحدث فى برلين الغربية».

كان كنيدى جريئاً فى رده على تحدى خروشوف، إذ طالب الكونجرس بزيادة إضافية فى ميزانية الدفاع قدرها ٣,٢ بلايين دولار، وضاعف استدعاءات الخدمة العسكرية ثلاث مرات، ومدّ فترة التطوع للخدمة العسكرية، وقام بتعبئة ١٥٨,٠٠٠ من القوات الاحتياطية ورجال الحرس الوطنى. وترتب على ذلك زيادة فى حجم القوات المسلحة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ جندى، وقام بإرسال ٤٠,٠٠٠ منهم إلى أوروبا، وأسس ست «فرق للأولوية» من القوات الاحتياطية؛ لتكون على أهبة الاستعداد للتعبئة.

وهكذا، أصبح الجانبان فى طريق التصادم، إذ رفض خروشوف أن يسمح بأن تظل برلين الغربية باباً للهروب، بينما رفض كنيدى أن يقبل أى تغيير فى وضعها. ثم أعلن «والتر البريشت» من ألمانيا الشرقية أنه ـ بعد توقيعه معاهدة سلمية مع روسيا ـ سيغلق مدخل برلين الغربية إلى العالم الغربى؛ فلجأ الرئيس إلى تجهيز الشعب الأمريكى لتوقع أسوأ الاحتمالات، ففى خطاب عبر التليفزيون ـ فى ٢٥ يوليه ١٩٦١ ـ أوضح كنيدى مدى تصميمه على البقاء فى برلين عن طريق الاستشهاد بأعمال بطولية من الماضى.. «إننى أسمع ما قيل عن تعذر الاحتفاظ ببرلين الغربية عسكرياً، وكذلك كانت (باستونى)، والحقيقة أن (ستالينجراد) كانت كذلك أيضاً. إن كل بقعة خطيرة، يمكن الاحتفاظ بها إذا وجد الرجال الشجعان الذين يعملون

على الاحتفاظ بها». ثم كرر قوله أن ضياع برلين يعنى أن تليها ألمانيا ثم كل أوروبا الغربية. لقد كانت برلين ضرورية «للعالم الحر بأجمعه».

رأى خروشوف أن الخطاب كان يدعو للحرب، وأطلق على سياسة كنيدى فى التسلح «هيستريا عسكرية». ولم يتقدم كنيدى بأية عروض جديدة، بل إنه فى الحقيقة لم يتقدم بأية عروض على الإطلاق لتكييف وضع برلين. واستمر سكان ألمانيا الشرقية فى الهروب عبر برلين، حتى كادت أن تصبح دولة بلا شعب. واستمرت دعاية الغرب فى إحراج الشيوعيين بالإعلان، بصخب، عن أن تدفق اللاجئين دلّ على تفوق الرأسمالية. وبحلول أغسطس، كان زعيما العالم قد ورطا نفسيهما لدرجة أن التوصل إلى حل، بدا مستحيلاً، وأصبح جليا أن الحرب هى النهاية الحتمية المقدرة للأزمة.

كانت النقطة الحرجة هى اللاجئين، وكان من الممكن أن يتقبل خروشوف والألمان الشرقيون جهاز تجسس الغرب الموجود فى غرب برلين، ولكنهم لم يستطيعوا تحمل الاستمرار فى فقدان أحسن مواردهم البشرية التى تذهب إلى الغرب، أو منح الغرب مثل هذه الدعاية الممتازة. أما عن كنيدى، فكان من الصعب توقع أنه سيغلق الأبواب إلى غرب برلين، أو أنه سيتراجع عن استخدام قضية اللاجئين للدعاية.

فى ١٣ أغسطس ١٩٦١، تولى خروشوف حل المشكلة فجأة وبشكل مثير للغاية، لقد بنى «الحائط»، وبذا وضع الولايات المتحدة ودول الغرب أمام الأمر الواقع، وقسم برلين بصفة دائمة؛ فتوقف اللاجئون، وبعد فترة من الثورة والهياج ـ كرد فعل مبدئى ـ خفت حدة التوتر بشكل واضح. إن بناء السوفييت للحائط، وتقبل دول الغرب له ـ فى نهاية الأمر ـ وضع نهاية مؤكدة لكل المحاولات الجادة لإعادة توحيد ألمانيا. كان خروشوف على استعداد أن يتقبل برلين الغربية طالما ظلت منعزلة وكفت عن استنزاف ألمانيا الشرقية، وكان كنيدى على استعداد أن يتقبل

«الحائط»، طالما ظلت برلين الغربية فى المدار الغربى. لقد كان «حائط» خروشوف ضربة عبقرية.

ولكنه كان كذلك ضربة وحشية، لم يسبق لها مثيل، ولم يحدث أبداً من قبل فى تاريخ البشرية أن تم بناء حائط حول مدينة، لكى يحتفظ بالناس داخله. وكانت النتيجة مأساة بشرية بلا حدود.

إن الحل الوسط الذى انتهى إليه الوضع فى برلين، لم يؤد إلى القضاء على التوتر. ولم يكن ذلك ممكنا، حيث كانت برلين قضية واحدة فقط من بقايا الحرب العالمية الثانية التى ظلت دون تسوية. واستمر حشد القوة العسكرية الأمريكية، بعد توسيع نطاقها خلال الأزمة. لقد شعر عديد من أنصار الحرب الباردة ـ فى الولايات المتحدة ـ أن موقف كنيدى كان ضعيفاً لأنه لم يهدم حائط برلين. وشعر أنصار الحرب الباردة ـ فى العالم الشيوعى ـ أن خروشوف كان ضعيفاً، لأنه بنى الحائط. إلا أن موقف خروشوف كان أسوأ لأن إدارة كنيدى أصرت على التباهى بالتفوق العسكرى الأمريكى. دأب المسئولون بإدارة كنيدى، والمفكرون ـ الذين إنهمكوا فى تخطيط الاستراتيجية الأمريكية ـ على رسم عدة مخططات، جهاراً، تقوم فيها الولايات المتحدة بتسديد الضربة الأولى. وبرروا تلك المناورات بأنها تعبير عن شكوكهم فى مصداقية القاذفات السوفيتية.

كان يتعين على خروشوف أن يتخذ إجراءً مضاداً. وكان بإمكانه السماح للولايات المتحدة باستراتيجية التفوق النووى ـ وعلى أية حال لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئاً ذا قيمة لأن الولايات المتحدة كان بمقدورها أن تتفوق عليه. ولكن خروشوف رفض السماح للولايات المتحدة بالتفوق، وبالتباهى بهذا التفوق فى آن واحد. وكان بحاجة إلى موقف يحقق له نصراً استراتيجياً مثيرا بحيث تتجه أنظار العالم إلى كفاءة روسيا العسكرية، بحيث يتم ذلك بطريقة ترضى قواته المسلحة. وعثر على ضالته بانفجار مدو؛ ففى ٣٠ أغسطس ١٩٦١ أعلن أنه قد نقض الاتفاق الأمريكى الروسى الخاص بوقف التجارب النووية لمدة ثلاث سنوات، وذلك

بإجراء سلسلة من التجارب، بلغت ذروتها بتفجير سلاح وصلت قوته التفجيرية إلى ٥٨ ميجاتون، وهذا ما يعد أقوى ثلاثة آلاف مرة من القنبلة التى ألقيت على هيروشيما، وأقوى بعدة مرات من أى سلاح سبق تطويره بالولايات المتحدة. وكانت تلك القنبلة الضخمة مفيدة جداً للأغراض الدعائية ولكن فائدتها العسكرية كانت ضئيلة جداً؛ إن لم تكن منعدمة؛ لأن كلاً الجانبين كان يمتلك بالفعل قنابل تفوق احتياجاته.

ومع ذلك، حققت سلسلة التجارب، التى أجراها خروشوف تأثيراً أدى إلى مطالبات، حادة النغمة، بأن يبدأ كنيدى فى سلسلة تجاربه النووية. وكان الرئيس قد أعطى أولوية مطلقة للتوصل إلى معاهدة لوقف التجارب النووية، وانتابه الفزع عندما فشل فى إبرامها، وانتابه الغضب من خروشوف لنقضه اتفاقهما، ولكنه رفض أن يحمل على البدء فى سلسلة جديدة من التجارب. كان كنيدى فى شدة القلق إزاء مشكلة التشاجر والتطاحن، رغم إدراكه أن الولايات المتحدة ستظل متفوقة استراتيجياً، مهما زاد حجم القنابل الروسية، وذلك بسبب الكفاءة الأمريكية فى نظم الإطلاق. ومع ذلك لجأ كنيدى إلى حل وسط بإجراء سلسلة من التجارب فى باطن الأرض، بدأت فى سبتمبر ١٩٦١، ولكنها لم تكن كافية لإرضاء النقاد المحليين أو علماء الذرة أو البنتاجون، ولذلك أمر ـ فى أبريل ١٩٦٢ ـ بإجراء سلسلة من التجارب النووية الأمريكية فى الجو (بلغ إجمالها ثلاثون تجربة).

ومن هنا، بدأ خروشوف يبحث ـ فى مكان آخر ـ عن فرصة لتغيير الميزان الاستراتيجى، بعد أن اصيب بالاحباط فى المجال النووى، وبعد أن فشل فى إخراج الغرب من برلين، وبعد أن عجز عن مجاراة الولايات المتحدة فى إنتاج القذائف العابرة للقارات (CIBM)، وبعد أن عكف الصينيون على إثارة سخطه بالعزف على وتر واحد هو الضعف السوفيتى. وعثر على ضالته فى كوبا؛ فمنذ حادث «خليج بيجز» أخذت روسيا ترفع من حجم مساعداتها لكاسترو، التى بدأت تشتمل على ذخيرة عسكرية. وكان كنيدى قد أنذر السوفييت بعدم تزويد الكوبيين بأسلحة هجومية، فطمأنه خروشوف بأنه لم تكن لديه النية لذلك، ولكن فى أغسطس

١٩٦٢، بدأ الاتحاد السوفيتى فى إقامة قواعد للصواريخ ذات المدى المتوسط، فى كوبا.

ما الذى كان خروشوف يسعى لتحقيقه؟ كان من المستبعد توقعه التوصل إلى القدرة على تسديد الضربة الأولى، إذ كان نظام الإطلاق الأمريكى شاسعاً جداً؛ بحيث يتعذر على روسيا تدميره. كما كان سعى خروشوف إلى مد نطاق سباق التسلح مستبعداً، لأن السوفييت كانوا سيعجزون عن مجاراة الطاقة الإنتاجية الأمريكية. إن وضع الصواريخ فى كوبا، لن يجعل كاسترو شيوعياً أكثر مما كان، ولكن كان محتملاً أن خروشوف ظن أن الصواريخ كانت ضرورية لحماية كوبا من أى غزو. لقد كان الكونجرس الأمريكى، والقوات المسلحة، ودور الصحافة يتحدثون ـ صراحة ـ عن غزو كوبا مرة ثانية؛ بينما أصر السوفييت ـ بعد وقوع الحادث ـ على أن الصواريخ كانت رداً على الحديث عن الغزو. ولو كان ذلك هو دافع خروشوف، فإنه قد أساء الحكم ـ بطريقة مزرية ـ لأن الصواريخ دعت الولايات المتحدة، فى الواقع، إلى الغزو.

كانت القضية فى كوبا، هى قضية المكانة. وكان كنيدى قد قضى على أسطورة فجوة الصواريخ، كما أن القنبلة ذات الخمسة وثمانين ميجاتون لم تترك الانطباع المطلوب، فاستمر فريق المشتددين ـ فى الاتحاد السوفيتى والصين ـ فى الضغط على خروشوف. لكى يواجه الولايات المتحدة. واستمرت إدارة كنيدى فى التفاخر بالتفوق العسكرى الأمريكى، فكما أوضح «تيودور سورينسن» المسئول الرئيسى عن كتابة خطب كنيدى فيما بعد: «من المؤكد أن الصواريخ التى أقيمت فى كوبا لم تؤد بمفردها إلى تغيير الميزان الاستراتيجى بشكل أساسى؛ نظراً لوجود كل الصواريخ الأخرى ذات القوة التفجيرية الرهيبة (ميجاتون) التى كان السوفييت قادرين على إطلاقها علينا... إلا أن هذا التوازن كان يمكن أن يتغير تغييراً جوهريا من حيث المظهر وفى مجالات الإرادة القومية وزعامة العالم.. إن مثل هذه المظاهر تساهم فى

تشكيل الواقع». وباختصار لقد تعلقت أخطر أزمة فى تاريخ الإنسان، بالمظاهر، فلقد أوشك العالم على الدمار الشامل، بسبب موضوع يتعلق بالمكانة.

فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٢.. قامت طائرات (U ـ 2) بتصوير منصة إطلاق صواريخ تحت الإنشاء فى كوبا، وعند إتمام تلك المنصة كان يمكنها أن تطلق الصواريخ على مدى ألف ميل. كان كنيدى يواجه بالفعل ضغوطاً من الجمهوريين ـ بقيادة السيناتور ـ «كينيث كيتنج» من نيويورك، لأنه فشل فى إيقاف الحشد العسكرى فى كوبا. وفى ذلك الوقت، كان قد تبقت ثلاثة أسابيع ـ فقط ـ على إجراء انتخابات الكونجرس، وكان الضغط رهيباً من أجل الردّ على السوفييت. واقترح أحد كبار المسئولين بالبنتاجون على كنيدى ألا يتخذ أى إجراء، وأن يتجاهل موضوع الصواريخ، حيث أنها لا تشكل أى خطر إضافى على الولايات المتحدة، ولكن الرئيس أجابه بأنه يتعين عليه أن يتصرف، فقد كان يخشى من المساءلة إذا لم يفعل شيئاً.

قام الرئيس بتحديد الأهداف العامة: إخراج الصواريخ من كوبا، وتجنب تبادل نووى، والاستعداد لتحركات الروس فى مكان آخر مثل برلين، والمحافظة على احترام وكرامة الولايات المتحدة. ثم قام بتعيين لجنة خاصة من اثنى عشرعضواً تقريباً، أطلقت على نفسها اسم «اللجنة التنفيذية»، لكى تقدم له المشورة،كان العضو البارز فى تلك اللجنة هو النائب العام «روبرت كنيدى». الأخ الأصغر للرئيس، وناقشت اللجنة عدداً كبيراً من البدائل، إلا أنها سرعان ما اقتصرت على: شن هجوم نووى ضد قواعد الصواريخ؛ أو شن هجوم جوى تقليدى يتلوه غزو؛ أو بدء حصار بحرى يهدف إلى منع السوفييت من إرسال أى إمدادات أخرى إلى كوبا. ولكن الخوف من انتقام روسيا سرعان ما أدى إلى إلغاء فكرة هجوم نووى؛ بينما زاد التأييد الذى نالته فكرة «هجوم تقليدى وغزو». كانت الصواريخ بمثابة معجزة من السماء للتخلص من كاسترو. وتجمعت قوات الغزو فى فلوريدا، وطلب كنيدى من وزراة الخارجية تنفيذ برنامج ـ على عجل ـ بجميع الوسائل المتيسرة، لتكوين حكومة مدنية فى كوبا، يتم تأسيسها بعد احتلال البلد.

ومع ذلك فقد استمر «روبرت كنيدى» فى إصراره على أن يكون الرد المبدئى أقل اندفاعاً إلى الحرب، ورفض أن يقر هجوماً مفاجئاً، قائلاً: «لن أسمح بأن يكون أخى هو (توجو) الستينيات». كان يرى أن يبدأ الرد بحصار بحرى جزئى، بالمستوى الذى يمنع دخول البضائع العسكرية السوفيتية، ولكن بدون أن يجبر خروشوف على رد فعل نووى. وكان يرى أن فكرة الحصار لها ميزة عظيمة، وهى أنها إذا لم تؤد إلى النتائج المرجوة، فإنه يمكن ـ عندئذ ـ تصعيد الموقف. أما «دين أتشيسون»، الذى استدعى لإبداء المشورة، فقد عارض فكرة الحصار بقوة، وأوصى بالهجوم الجوى الذى حبذته هيئة أركان الحرب أيضاً. ولكن فى النهاية، اختار كنيدى أن يبدأ الرد الأمريكى بالحصار.

بعد أن قرر كنيدى الإجراء الذى سيتخذه، أرسل «أتشيسون» إلى أوروبا لإخطار أعضاء حلف شمال الأطلنطى، الذين أبدوا دهشتهم من تطرف ردود الفعل الأمريكية؛ إذ اعتاد الأوروبيون على شبح الصواريخ السوفيتية متوسطة المدى الذى خيم على حياتهم لسنوات عديدة. ومع ذلك فإن ديجول، و «إدناور»، والآخرين أيدوا الرئيس، وكذلك منظمة الدول الأمريكية (دول أمريكا الجنوبية) "Organization of the American Stares". وفى الساعة السابعة من مساء يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢، ظهر كنيدى على شاشة التليفزيون لإبلاغ الشعب الأمريكى بالقرار الذى اتخذه؛ حيث بدأ بشرح أبعاد الموقف، ثم أعلن أن الولايات المتحدة قد قررت فرض «حصار صارم على كل المعدات العسكرية الهجومية» التى تشحن إلى كوبا. وأمر بأن تتخذ القوات العسكرية الأمريكية حالة الاستعداد القصوى، ثم أنذر خروشوف بأن الولايات المتحدة ستعتبر أن إطلاق أى قذيفة نووية من كوبا على أى دولة تقع فى النصف الغربى من الكرة الأرضية، كاعتداء على الولايات المتحدة من قبل الاتحاد السوفيتى، بما يتطلب الرد عليه بالانتقام من الاتحاد السوفيتى شر انتقام، ثم ناشد خروشوف أن ينقل الأسلحة العدائية تحت إشراف الأمم المتحدة.

انتهز كنيدى الفرصة التى أتيحت له، ليكون هو البادئ بالمبادرة؛ فأصبح رد الفعل فى يد الاتحاد السوفيتى، الذى جاء أول رد فعل له محبذاً للقتال، إذ نص خطاب

خروشوف الذى أرسله إلى واشنطن ـ فى ٢٣ أكتوبر ـ على أن الاتحاد السوفيتى لن يتقيد بالحصار، لأنه غير قانونى «إن الإجراءات التى اتخذتها الولايات المتحدة بالنسبة لكوبا، ليست أكثر من تصرفات قطاع طرق، أو إذا كنت تفضل، هى حماقة الاستعمار المنحل». واتهم كنيدى بأنه يدفع البشرية «إلى حافة حرب نووية عالمية». ثم أكد على أن الملاحين السوفييت المتجهين إلى كوبا لن يطيعوا أوامر القوات البحرية الأمريكية. كان أسطول الولايات المتحدة ـ فى تلك الأثناء ـ قد انتشر فى جبهة مستعرضة، تبعد ٥٠٠ ميل عن ساحل كوبا، وحدث أن قامت مدمرتان باعتراض سفينة بنمية، متجهة إلى كوبا حاملة بضائع روسية ـ وبالصعود إلى السفينة ـ وجد أنها لا تحمل مواد عسكرية فسمح لها بالمرور. واستمرت السفن السوفيتية فى التوجه إلى كوبا، وإن كانت السفن التى كانت تحمل صواريخ كانت ترتد عائدة من حيث أتت. ومع ذلك، فقد استمر العمل فى مواقع الصواريخ فى كوبا بدون توقف حتى اقترب الانتهاء من تجهيزها للعمل.

وظل خطر الإبادة المتبادلة شديداً، وظل كنيدى على موقفه الحاسم. وأخيراً فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ أكتوبر، أرسل خروشوف رسالة أخرى، كانت طويلة ومثيرة للعواطف، وهو مابدا ملائماً فى ظل المخاطر المتوقعة، وكان رئيس الوزراء الروسى يود أن يدرك كنيدى أنه «إذا اندلعت الحرب فعلا فلن يكون فى مقدورنا أن ننهيها» وكرر مرة أخرى: إن الصواريخ موجودة فى كوبا لأغراض دفاعية فقط،: «إننا فى كامل قوانا العقلية، ونفهم بمنتهى الوضوح أننا إذا هاجمناكم.. فإنكم سترددون بنفس الأسلوب، ولكنكم ـ أيضا ـ سوف تتلقوا نفس ما ستقذفوننا به. لن يستطيع أن يفعل ذلك غير المجانين أو الانتحاريين، الذين يسعون لفناء أنفسهم، ويريدون أن يدمورا العالم بأسره قبل أن يموتوا». كما قال إنه لا يسعى وراء سباق التسلح «الأسلحة لا تجلب إلا الكوارث، إذا تراكمت لدينا فإن ذلك يضر باقتصاد الدولة، وإذا استخدمناها.. فإن ذلك يدمر شعوب الطرفين. وبالتالى يتحتم أن يكون الإنسان مجنوناً لكى يؤمن بأن الأسلحة هى الوسيلة الرئيسية للحياة فى المجتمع».

ثم تلى ذلك اقتراح محدد، وهو أن يتعهد خروشوف بألاّ يرسل مزيداً من الأسلحة إلى كوبا، وأنه سوف يسحب أو يدمر الأسلحة الموجودة هناك بالفعل، إذا قام كنيدى بانهاء الحصار، وتعهد بألاّ يغزو كوبا وحث كنيدى على أن يحل العقدة بدلاً من تشديد وثاقها.

وفى صباح اليوم التالى ـ ٢٧ أكتوبر ـ اجتمعت اللجنة التنفيذية لدراسة اقتراح خروشوف، وقبل أن يصل أعضاء اللجنة إلى قرار بالقبول أو الرفض، وصل خطاب ثانٍ من خروشوف، وكانت لهجته رسمية أكثر من الخطاب الأول، ورفع فيه الثمن إذ قال ـ ربما إذعاناً لضغوط من قواته المسلحة ـ أنه سوف يسحب الصواريخ من كوبا، عندما ينقل كنيدى الصواريخ الأمريكية من تركيا: «لقد أصابك القلق بشأن كوبا، وأنت تقول إنها تثير قلقك لأنها تقع على بعد تسعين ميلاً عبر البحر من شاطئ الولايات المتحدة. ومع ذلك.. فإن حدود تركيا متاخمة لنا.. لقد وضعت أسلحة صواريخ مدمرة، فى تركيا المتاخمة لنا فعلاً».

لقد صدم أعضاء اللجنة التنفيذية، حتى بالرغم من الحقيقة التى أشار إليها روبرت كنيدى فيما بعد «لم يكن الاقتراح الذى قدمته روسيا اقتراحاً غير منطقى، ولم يكن يعتبر خسارة للولايات المتحدة أو لحلفائنا فى الناتو» كان الرئيس فى ذلك الحين قد أمر فعلاً بنقل الصواريخ من تركيا، ولكنها كانت لا تزال موجودة هناك؛ بسبب بعض التعقيدات البيروقراطية والمقاومة التركية. ومع ذلك، فقد اعتبر الرئيس أن نقل الصواريخ تحت الضغط السوفيتى أمراً لا يحتمل؛ لأن المكانة الأمريكية ستتعرض للطمة شديدة جداً، وهكذا استمر احتمال تبادل الهجوم النووى معلقاً فى الميزان.

ثم اقترحت هيئة الأركان شن هجوم جوى صباح اليوم التالى على كوبا، فأوضح كبار المسئولين العسكريين إنهم كانوا دائماً معارضين لفكرة الحصار لكونها ضعيفة جداً، وأنه قد حانت الفرصة لبدء العمليات فوراً. ومما عزز موقفهم أن صاروخ سام سوفيتى أصابت إحدى الطائرات الأمريكية (U - 2) أثناء طيرانها فوق كوبا، وقد

أدت هذه الواقعة إلى موافقة أغلبية اللجنة التنفيذية، على ضرورة شن هجوم جوى صباح اليوم التالى. ولكن الرئيس تقاعس، إذ فضل الانتظار لمدة يوم واحد على الأقل، فقامت وزارة الخارجية بإعداد مسودة خطاب من كنيدى إلى خروشوف، يبلغة فيه أن الولايات المتحدة لا تستطيع نقل الصواريخ من تركيا، وأنه لا يمكن التوصل إلى أية اتفاقية للمقايضة.

عندئذ تقدم روبرت كنيدى باقتراح، مؤداه أن تتجاهل اللجنة التنفيذية خطاب خروشوف الثانى، وتجيب على الخطاب الأول، الذى عرض فيه تبادل نقل الصواريخ الموجودة فى كوبا، مقابل وعد أمريكى بعدم غزو الجزيرة. وأعقب ذلك مناقشات حادة، ولكن الرئيس ـ فى النهاية ـ قبل اقتراح أخيه، وأرسل خطاباً ملائماً إلى خروشوف.

ومع ذلك، فإن ما فاق تلك الواقعة الشهيرة أهمية، كان وعداً شفوياً من روبرت كنيدى إلى السفير السوفيتى لدى الولايات المتحدة، «أناتولى دوبرينين». فبالرغم من أن الرئيس رفض أن يتراجع علناً عن موضوع الصواريخ التركية، إلا أنه ـ فى نهاية الأمر ـ بدأ يرى سخافة الموقف؛ فالولايات المتحدة كانت على وشك قصف أمة صغيرة لم تكن فى حالة حرب معها، وفى سبيل ذلك، كانت تجازف بتبادل الهجوم النووى مع الاتحاد السوفيتى ـ بسبب صواريخ من طراز قديم فى تركيا، كان قد أمر فعلاً بنقلها. وناقش كنيدى المسائل المتعلقة بالموضوع مع أخيه، وطلب منه أن يتحدث مع «دوبرينين». وفى مساء السبت ـ ٢٧ أكتوبر ـ ذهب «دوبرينين» إلى مكتب روبرت كنيدى، حيث بدأ النائب العام بإنذار السفير الروسى قائلاً: إذا لم تحصل الولايات المتحدة ـ خلال اليوم التالى ـ على تعهد بإزالة الصواريخ «فإننا سوف نزيلها». وعندئذ سأل «دوبرينين» عن نوع الاتفاق الذى كانت الولايات المتحدة مستعدة لإبرامه، فقام كنيدى بتلخيص الخطاب الذى كان قد أرسل تـواً إلى خروشوف، بغرض مقايضة الصواريخ، مقابل وعد أمريكى بعدم غزو كوبا، فاتجه «دوبرينين» للتركيز على النقطة الصعبة: وماذا عن الصواريخ الأمريكية فى تركيا؟

كانت إجابة روبرت كنيدى، كما جاء فى وصفه للأزمة: «لقد قلت إنه لا يمكن الاتفاق على تعويضات، أو أية ترتيبات أخرى تحت ذلك النوع من التهديد أو الضغط؛ وإنه فى نهاية الأمر، فإن مثل هذا القرار يجب أن يصدر عن دول الناتو. ومع ذلك فقد ذكرت أن الرئيس كنيدى كان تواقاً لنقل هذه الصواريخ من تركيا وإيطاليا منذ فترة طويلة من الزمن، ولقد أصدر أوامره بنقلها منذ وقت مضى، وأنه كان من رأينا أن تلك الصواريخ سوف تختفى خلال فترة قصيرة، بعد انتهاء هذه الأزمة».

كان البيان وافياً، لقد حصلت روسيا على وعدها. وفى اليوم التالى، قام «دوبرينين» بإخطار كنيدى أن الصواريخ سيتم سحبها من كوبا.

وهدأ العالم وأخذ يقيِّم الدروس المستفادة. لقد تعلم كل جانب شيئاً مختلفاً. فمثلاً أبلغ الصينيون العالم الثالث أن أزمة كوبا أثبتت أنه لا يمكن أن يثق بالروس. أما أوروبا ـ وعلى رأسها ديجول ـ فقد تعلمت أنه فى حالات الطوارئ سوف تتصرف الولايات المتحدة بمفردها، ودون استشارة دول «الناتو» فى قضية ذات تأثير، ليس فقط على الأمن الأمريكى، بل على بقاء العالم. بينما تعلم السوفييت أنهم لن يتمكنوا من التوصل إلى التكافؤ العسكرى مع الولايات المتحدة، أو حتى التكافؤ من حيث المظهر فقط. أما كنيدى ـ الذى وصل إلى حافة الهاوية، والذى اقترب من إبادة العالم ـ فقد تعلم أن يكون أكثر ليونة فى بياناته الرسمية، وأقل حدة فى تأكيداته. بينما عمدت إدارته إلى استخدام لهجة أكثر اعتدالاً، على الأقل فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى. وهكذا بدأ الحديث عن الحاجة الماسة إلى السلام، وتخفيض التسليح ليحل محل التفاخر والتباهى بالقوة العسكرية الأمريكية.

فى ١٠ يونية ١٩٦٣ بالجامعة الأمريكية، تقدم كنيدى بالتماس مؤثر من أجل السلام الذى وصفه بأنه «النهاية المنطقية الضرورية للبشر الذين يتسمون بالرشاد». وبعد مرور عدة أسابيع، تم توقيع معاهدة الحظر الجزئى للتجارب النووية (P.T.B.T.)

والتى منعت إجراء تجارب نووية فى الجو. ووفقاً لما دونه «هربرت دينرشتاين»: «اعترفت معاهدة الحظر الجزئى للتجارب النووية ـ بشكل رمزى ـ بأن تسوية الخلافات بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، سوف تتم على أساس التفوق الأمريكى.»

وثار غضب الصينيين، ونعتوا خروشوف بالحماقة لأنه وضع الصواريخ فى كوبا، وبالجبن لأنه نقلها من هناك. كما زادت معارضة خروشوف داخل الكرملين، وبالرغم من كل مواقفه الدرامية، فقد فشل خروشوف فى إحراز انتصارات ذات مغزى فى الحرب الباردة، بينما أدت سياسة الوقوف على حافة الهاوية إلى إلقاء الرعب فى قلوب كل الناس تقريباً. وفى خلال عام، خرج خروشوف من السلطة.

بعد أن خفت حدة التوتر عقب أزمة الصواريخ فى كوبا، بدأ ديجول وغيره من الأوروبيين فى التفكير جدياً فى مراجعة علاقتهم بالولايات المتحدة. وكان ديجول يسعى إلى إعادة أوروبا إلى الوضع المتميز الذى كانت عليه، ولكنه أدرك أن تحقيق ذلك الهدف كان يتطلب الانفصال عن حلف شمال الأطلنطى. بعد كوبا، كان ديجول يعلم أن الولايات المتحدة لن تستشير شركاءها فى «الناتو» قبل اتخاذ أى إجراء، وكان مقتنعاً بأن الولايات المتحدة لن تخاطر بوجودها لحماية أوروبا، كما كان يشك أن الجيش الأحمر سيتقدم عبر جبال الألب فى أى وقت من الأوقات، وكان مؤمناً بأن الوقت قد حان لكى تخرج أوروبا من الحرب الباردة، وتبدأ فى أن تفرض على الآخرين الاعتراف بمركزهـا وحقوقها. ولذلك، أعد معاهدة صداقة فرنسية ألمانية، واتجه إلى تحسين علاقته مع دول حلف وارسو، وأسرع بخطى كبيرة لتطوير الأسلحة النووية الفرنسية، وقرر استبعاد بريطانيا من السوق الحرة.

فى ١٤ يناير ١٩٦٣ أعلن ديجول برنامجه. لقد استعمل حق الفيتو ضد اشتراك بريطانيا فى السوق الأوروبية المشتركة، لأنها سوف تحوّل هوية المجموعة الاقتصادية الأوروبية و«فى نهاية الأمر.. سوف يبدو السوق فى شكل تجمع هائل لدول المحيط الأطلنطى، تتولى الولايات المتحدة إدارته والسيطرة عليه». لقد كان كنيدى يمارس

ضغوطاً لتكوين قوة نووية متعددة الأطراف داخل حلف شمال الأطلنطى، والتى كان من المفترض أن تعطى بعض الثقل لرأى الأوروبيين فى استخدام الأسلحة النووية، وذلك على الرغم من إحباط أى خطوة تتخذها ألمانيا الغربية لتطوير القنابل الذرية الخاصة بها. وكان يعيب ذلك الاقتراح شئ واحد، وهو أن الولايات المتحدة لن تتخلى ـ تحت أى ظرف من الظروف ـ عن حق الفيتو بالنسبة للقنابل، ولذلك شجب ديجول الخطة وأعلن: «إن فرنسا تعتزم إنشاء قوات دفاعية خاصة بها» بالنسبة لنا... التكامل ليس شيئا بعيد المنال». ثم ختم حديثه عن القوة النووية الفرنسية قائلاً: «إننا نتفهم تماماً أن هذا العمل من جانب فرنسا لن ينال إعجاب بعض الجهات الأمريكية؛ ففى المجالات السياسية والاستراتيجية ـ مثلها فى ذلك مثل المجالات الاقتصادية ـ يبدو الاحتكار، فى نظر من يتمتعون به، أفضل النظم على الإطلاق».

ثم اتجه ديجول إلى سحب القوات البحرية الفرنسية من «الناتو»، وسرعان ما طلب نقل المقر الرئيسى للناتو من فرنسا. ولم تلق دعوته الجريئة لاستقلال أوروبا نجاحاً فورياً؛ حيث قررت ألمانيا الغربية أن تحافظ على علاقاتها الوثيقة بالولايات المتحدة. ولكن من المؤكد أن أهدافه العامة لاقت إعجاباً ساحقاً؛ فمنذ «يالتا» فى ١٩٤٥ حتى قيينا فى ١٩٦١، تولى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة تسوية القضايا الأوروبية، دون وجود أى زعيم أو قائد أوروبى على مائدة المفاوضات. ولم تكن أوروبا مستعدة لأن تظل تحترق حتى تصبح رماداً، لأن روسيا والولايات المتحدة اختلفتا على جزيرة فى خليج المكسيك.

كانت أهم الدروس المستفادة من أزمة كوبا هى إدراك خطورة سياسة الوقوف على حافة الهاوية. ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً، سعت روسيا والولايات المتحدة لوضع حد لنزاعاتهما، وتجنب التصرفات التى قد تؤدى إلى تصعيد الموقف، وتحديد حجم ارتباطاتهما؛ لكى يكون رد فعل الطرف الآخر محدوداً. وسوف يستمر الصراع ـ بوضوح بالغ ـ فى العالم الثالث، ولكن من الأفضل أن يكون على مستوى منخفض. وظلت الأهداف الأمريكية كما هى بلا تغيير، ولسوف يستمر كنيدى

فى متابعتها بكل همة ونشاط، ولكنه سيحاول تقليل اعتماده على القوة العسكرية فى تحقيق أهدافه، وفى حدود التسليم بأن العالم الثالث له آماله ومخططاته الخاصة.هل سيتمكن كنيدى أم لا من إنجاز ما تبقى من أهداف غير محدودة نسبياً، باستخدام وسائل محدودة... مازال ذلك أمراً مفتوحاً للمناقشة.

لقد استوعب كنيدى الدرس، وكانت قدرته على النمو من أعظم خصائصه، ولا شك أنه حصل على مرتبة الشرف عندما انفرجت أزمة صواريخ كوبا. ولقد ذكر فى خطابه بالجامعة الأمريكية: «التحليل النهائى.. إن أهم ما يجمعنا هو أننا جميعاً نقطن نفس الكوكب، كلنا نتنفس نفس الهواء، وكلنا مهتمون بمستقبل أولادنا، وكلنا عرضة للموت».